

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة هذه الطبعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد: فإن كتابي (صيد الخاطر) و(لفتة الكبد) للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي بما يحويانه من صدق مع النفس وعفوية في التعبير يرتقيان إلى مصاف الكتب الخالدة، التي يشعر قارئها أنه تجاوز الزمان والمكان، وأنه يعيش مع المؤلف خلجات نفسه، ونبضات قلبه، وخواطر عقله، وأحوال عصره، وطبقات مجتمعه، فالكتابان من هذه الجهة يعتبران وثيقتين تاريخيتين إنسانيتين هامتين، وخاصة فيما يتعلق بحياة ابن الجوزي رحمته الله.

وعندما طلب مني أستاذنا الفاضل محمد علي دولة إعداد طبعة من صيد الخاطر خاصة بدار القلم تبعت طبعات الكتاب منذ أول نشره إلى اليوم؛ فوجدت أن أول من طبعه هو الكتبي الشهير الشيخ محمد أمين الخانجي الحلبي نزيل مصر المتوفى سنة (١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م) وذلك من مطبعة الشرق عام ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م. ويبيّن في مقدمته أنه اعتمد في نشرته على ثلاثة نسخ خطية: الأولى: (الأحمدية) وهي من مكتبة أحمد طلعت بك. والثانية: (المصرية) وهي من مكتبة الأمير مصطفى فاضل باشا ومحفوظة بدار الكتب المصرية، والثالثة: هندية، ولم يذكر عنها شيئاً، إنما جاء ذكرها في حواشي الكتاب، ويظهر أنّ النسخ الثلاث مأخوذة عن أصل واحد لقلة الفروق بينها، وتوافقها فيما تصحف في الكتاب وقد وقف على طبع الكتاب، أحد النبهاء من طلاب الأزهر أو طلاب الجامعة المصرية كما كان يفعل الشيخ أمين وأمثاله عادة دون إشارة إلى اسم هذا المحقق المجهول. وقد رُقمت فصول هذه الطبعة بأرقام متسلسلة مع مقدمة للشيخ أمين وفهرس للموضوعات، وتقع هذه الطبعة في (٤٥٦) صفحة من القطع العادي.

أما الطبعة الثانية^(١) فهي طبعةٌ ربحانة الشام القاضي الفقيه والداعية الأديب الشيخ علي الطنطاوي، وهو الذي عرّف الناس بالكتاب بعد أن بقي في زوايا النسيان ما يزيد على ثلاثة عقود، فأعاد نشره اعتماداً على طبعة الخانجي، وقد ذكر رَضِيَ اللهُ فِيهِ في مقدمته أنّه طلب من الدكتور صلاح الدين المنجد حفظه الله تعالى عندما كان مديراً لمعهد المخطوطات العربية أن يرسل إليه مصورة عن نسخة خطية من الكتاب، فأرسل إليه الدكتور نسخة لعلها نسخة دار الكتب، التي هي أحد أصول طبعة الخانجي، فكانت الفائدة منها محدودة، وبقي تصحيح الكتاب يعتمد على فطنة وعلم وألمعية الأستاذ الطنطاوي وهو من هو، وقد تميزت طبعته رَضِيَ اللهُ فِيهِ بمقدمة رائعة، فكلُّ ما كتبه الشيخ الطنطاوي هو من كنوز الأدب الرفيع، وقد طلب الشيخ الطنطاوي رَضِيَ اللهُ فِيهِ من الشيخ ناصر الدين الألباني الذي وصفه بأنه المرجع اليوم في رواية الحديث في البلاد الشامية أن يبين ما في أحاديث الكتاب من الصحة أو الضعف، وقد صدرت طبعة الشيخ في ثلاثة أجزاء من القطع المتوسط عن دار الفكر بدمشق عام (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م) وقد شاركه في العمل بالكتاب شقيقه القاضي الفاضل ناجي الطنطاوي، الذي قابل الكتاب بمخطوطة دار الكتب المصرية، ووضع عنوانات الفصول، وبطبعة الشيخ علي الطنطاوي طبّق الكتاب الآفاق، وعمّت شهرته الخاصّ العام^(٢). فجازه الله خيراً.

أما الطبعة الثالثة: فهي طبعة العلامة الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رَضِيَ اللهُ فِيهِ الصادرة عن دار الكتب الحديثة بمصر عام (١٩٦٠م) قدم لها بمقدمة رائعة على وجازتها، وبين عمله في الكتاب بقوله: «لقد طالعت هذا الكتاب، ورأيت أن أيسّر للناس الإفادة منه، وما كدت أمضي في قراءته حتى شعرت بأنّ النساخين والطباعين قد شوّهوا الكتاب، وكادت بعض أفكار المؤلف تخفى أو تطمس من كثرة هذه الأخطاء، ومع اتفاق المخطوطات على تدوينها دون وعي... فرأيتُ أن أخدم المعنى الصحيح جهدَ الطاقة، ولم يكن بدُّ من حذف كلمات مقحمة، وإثبات كلمات محذوفة، وتصويب كلماتٍ محرفة، ولم أشأ تسجيل هذا التغيير في هوامش الصفحات، إذ لم أر في ذكره كبيرَ فائدة^(٣). وهذا الذي صنعه الشيخ محمد

(١) رمزت لها ب(ط).

(٢) وقد رمزت لها ب(ط).

(٣) مقدمة صيد الخاطر ص(٧)، وقد رمزت لها ب(ع).

الغزالي رحمته الله على حسنه وبراعته لا يعجب بعض من يعمل في تحقيق التراث. ثم توالى الطبعات فمنها من اعتمد طبعة الشيخ الطنطاوي، ومنها من اعتمد طبعة الشيخ الغزالي، ومنها من لفق بين الطبعتين. حتى لم يعد القارئ يميز بين ما كان في أصل الكتاب وما صار إليه الحال^(١)، وكان جُلَّ اهتمام من عني بالكتاب تخريج الأحاديث، وترجمة الأعلام من غير المشاهير، وشرح الألفاظ الغريبة، وهم في ذلك ما بين موجزٍ ومسهب، وهو عمل مبرور جزى الله القائمين به خيرًا، وقد يبلغ عدد طبعات الكتاب التي اطلعت عليها ست عشرة طبعة^(٢). وهي متداولة في الأسواق، لا أرى داعٍ لذكرها، لا غصًا من شأنها، بل لداعي الاختصار.

عملي في الكتاب:

- ١ - توثيق النصّ: اعتمدت في هذه الطبعة على نشرة الخانجي، فجعلتها أصلًا وأثبت الزيادة الضرورية والموضوعة بين حاصرتين^(٣)، وما تصحّفت أصلحته مع بيان ما كان عليه الأصل، فلعلّ النص الذي أقدمه يكون أقرب إلى ما كتبه مؤلفه رحمه الله تعالى.
 - ٢ - ضبط النصّ: لما كان الكتاب من الكتب التي يقرؤها الخاص والعام فقد ضبطت النص بالشكل الكامل.
 - ٣ - وضعت عناوين للفصول مأخوذة من كلام المؤلف عدا بعض العناوين التي وضعها المؤلف نفسه وميزتها بنجمة.
 - ٤ - أبقى أرقام طبعة الخانجي للفصول كما هي.
 - ٥ - قسمت الكتاب إلى فقرات ورقمتها ترقيمًا متسلسلاً.
 - ٦ - أثبت الآيات بخط المصحف مع بيان رقم الآية واسم السورة التي هي منها.
 - ٧ - خرّجت الأحاديث التي ذكرها المؤلف تخريجًا موجزًا، فما كان في الصحيحين أو أحدهما اقتصر على ذلك، وأشارت إلى الضعيف، مع العلم أن
-
- (١) أما طبعة اليمامة التي أخرجها الأخ الأستاذ يوسف بديوي حفظه الله فقد راجعها على نسخة خطية هي نسخة دار الكتب التي كانت إحدى أصول طبعة الخانجي، قد رمزت لها ب(ي).
(٢) أذكر منها طبعة دار الأرقم، وقد رمزت لها ب(أ)، وطبعة دار خزيمة التي حققها واستفاض في التعليقات عليها الأستاذ عامر ياسين حفظه الله وجزاه خيرًا ورمزت لها ب(خ).
(٣) وهي مأخوذة من الطبعات الخمس التي ذكرتها.

العمل بالحديث الضعيف ضعفاً يسيراً على سبيل الاحتياط بعد بيان ضعفه جائز عند أكثر العلماء إذا كان من باب الأخلاق وفضائل الأعمال لا الأحكام.

٨ - ترجمت للأعلام من غير المشاهير ترجمة موجزة.

٩ - شرحت الألفاظ الغريبة على القارئ العام.

١٠ - عرفت بالمؤلف في المقدمة.

١١ - فهرست للكتاب.

وإتماماً للفائدة ألحقت بالكتاب رسالة (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد) التي يتفق موضوعها مع (صيد الخاطر) بأسلوبه ومضمونه، وقد كتبه مؤلفه بعد (صيد الخاطر) فهو بمثابة فصل من فصوله.

وقد اعتمدت في تصحيح (لفتة الكبد) على طبعة المنار، التي وقف عليها الشيخ محمد حامد الفقي رحمته الله، واعتمد فيها على نسختين خطيتين في دار الكتب المصرية وقد طبع الكتاب سنة (١٩٤٩هـ) وقابلته على طبعة الترقى، التي قدم لها وعلق عليها كل من ناصر الدين الألباني ومحمود مهدي استانبولي، وهي من منشورات جمعية التمدن الإسلامي بدمشق سنة (١٣٤٧هـ - ١٩٥٥م).

وفي الختام لا بد لي أن أشكر الأستاذ محمد علي دولة الذي أتاح لي خدمة هذا الكتاب، وتفضل بنشره في دار القلم العامرة، كما أشكر الأخوين الفاضلين: الأستاذ إبراهيم صالح والأستاذ بسام الجابي اللذين أفزع إليهما عند كل معضلة أو مشكلة، فجزاهما الله خيراً، وأسأله تعالى أن يتقبل عملي؛ فما أحسنت فيه فبفضل منه وتوفيق، وما أسأت فمن قصوري وتقصيري.

وأسأله تعالى أن يجزي كل من ساهم في نشر هذا الكتاب خيراً، إنه نعم المولى ونعم المسؤل، والحمد لله رب العالمين.

دمشق

غرة شعبان ١٤٢٥هـ

٢٠٠٤/٩/١٥

حسن السماحي سويدان

ترجمة المؤلف^(١)

١ - اسمه ونسبه، وكنيته ولقبه:

هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي.

كان والده علي صفاً^(٢) قد أنجب ثلاثة أبناء، وهم: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرزاق، وقد توفي والده في أول سنة (٥١٤هـ) وقد أتم ولده عبد الرحمن الثالثة من عمره. ولُقّب جدّه جعفر بالجوزي نسبة إلى فرضة يقال لها: فرضة الجوز على شاطئ دجلة بالقرب من بغداد على الأرجح.

٢ - مكان ولادته وتاريخها:

ولد عبد الرحمن بن الجوزي في أواخر عام (٥١٠هـ) في درب حبيب من نهر المعلى في الجانب الشرقي من بغداد المسمّى الرصافة، كما أن الجانب الغربي يسمّى الكرخ، يصل بينهما جسران على نهر دجلة.

(١) مصادر ترجمته: صيد الخاطر، ولفتة الكيد، والمنتظم للمؤلف، وابن نقطة في التقييد، الورقة (١٤١)، وابن الأثير في الكامل (٧١/١٢)، وابن الديلمي في الذيل على تاريخ بغداد، الورقة (١٢٢)، وابن أبي الدم في التاريخ المظفر، الورقة (٢٢٩)، وسبط ابن الجوزي في المرأة (٤٨١/٨)، والمنذري في التكملة، الترجمة (٦٠٨)، والنعال في المشيخة (١٤٠)، وأبو شامة في ذيل الروضتين (٢١)، وابن الساعي في الجامع (٦٥/٩)، وابن خلكان في الوفيات (٣/١٤٠)، والذهبي في تاريخ الإسلام، الورقة (٩٨)، وسير أعلام النبلاء (٣٦٥/٢١)، وابن كثير في البداية (٢٨/٣)، والدمياطي في المستفاد، الورقة (٦)، وابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (٣٩٩/١)، والغساني في العسجد، الورقة (١٠٦)، وابن الجزري في غاية النهاية (٣٧٥/١)، والعيني في عقد الجمان (١٧)، الورقة (٢٦١) وكثير غيرهم.

(٢) نحاساً.

٣ - عصره وبيئته:

كان العراق تحت سلطان السلاجقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وقد شهد القرن السادس صراعًا وانقسامًا في البيت السلجوقي، مما أتاح للخلفاء العباسيين في بغداد استرداد شيء من سلطانهم.

وعاصر ابن الجوزي ستة من الخلفاء العباسيين، وهم على الترتيب: المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩هـ)، والراشد (٥٢٩ - ٥٣٠هـ)، والمقتفي (٥٣٠ - ٥٥٥هـ)، والمستجد (٥٥٥ - ٥٦٦هـ)، والمستضيء (٥٦٦ - ٥٧٢هـ)، والناصر (٥٧٢ - ٥٦٢هـ).

أما بغداد فقد فقدت في عهده شيئًا من محاسنها، وخيم الخراب على بعض أجزائها، بسبب الفتن والحروب والكوارث التي كانت تتعرض لها بين الفينة والأخرى، فقد حدث في حياة ابن الجوزي حريق كبير عام (٥١٠هـ)، وزلزال عام (٥١١هـ)، وحريق في دار السلطنة عام (٥١٥هـ)، وفتنة وحروب عام (٥١٧هـ)، وزلزال عام (٥٣٨هـ)، وزلزال آخر عام (٥٤٤هـ)، وطوفان عظيم عام (٥٥٤هـ) غرقت فيها دار ابن الجوزي وتلفت كتبه، ثم جاء الوباء والمجاعة عام (٥٧٤هـ)، لكنها بقيت محافظة على مكانتها العلمية والأدبية، يقصدها العلماء من كل ناحية ليزدادوا علمًا، وحسبنا أن نعلم أن شيوخ ابن الجوزي قد بلغوا تسعة وثمانين شيخًا، وهو لم يرحل من بغداد إلا مرتين إلى الحج: الأولى سنة (٥٤١هـ)، والثانية سنة (٥٥٣هـ).

٤ - نشأته وطلبه للعلم:

توفي والده وهو طفل صغير أتم السنة الثالثة من عمره، فكفلته عمته، وقامت بأعباء تربيته، والعناية به، فحملته إلى مسجد الشيخ أبي الفضل ابن ناصر الذي اعتنى به، وعلمه. يقول رحمته الله في لفته الكبد، الفصل (٣): «ولقد وفق لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمته الله، وهو الذي تولّى تسميعي الحديث من زمن الصغر، وهو الذي جعله الله تعالى سببًا لإرشادي إلى العلم، فإنه كان يجتهد معي، وكان يحملني إلى الشيوخ العوالي، وأنا لا أعلم ما يراد مني، ولا أدري ما العلم من الصغر، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، وأثبت لي ما أسمعت بخطه، وأخذ لي إجازات، وعنه أخذت أكثر ما عرفت من علم الحديث، ولازمته إلى أن توفي رحمته الله، سنة (٥٥٠هـ)، فلت منه معرفة الحديث والنقل، ولم أستفد من أحدٍ كاستفادتي منه».

وهكذا نشأ ابن الجوزي شغوفًا بالعلم على اختلاف فنونه. يقول في صيد

الخاطر، الفصل (١٦٧): «إنني رجل حُبِّبَ إليَّ العلم من زمن الطفولة، فتشاغلتُ به، ثم لم يحبب إليَّ فن واحد بل فنون، ثم لم تقتصر همتي في فن على بعضه بل أرومُ استقصاءه».

وقد سخر للعلم كلَّ وقته وماله، قال: «فلما بلغت دفعوا لي عشرين دينارًا ودارين، وقالوا لي: هذه التركة كلها، فأخذت الدنانير، واشترت بها كتب العلم، وبعث الدارين، وأنفقت ثمنها في طلب العلم، ولم يبق لي شيء من المال».

ولم تكن مسيرة ابن الجوزي العلمية سهلة، بل لاقى فيها الشدائد، لكن حلاوة العلم كانت تذلل له كل صعب، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ولقد كنت في حلاوة طليبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج إلى طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكُلُّما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أنني عُرفت بكثرة سماعي لحديث وسير الرسول ﷺ وأحواله وآدابه، وأحوال الصحابة وتابعيهم، فصرت في معرفة طريقه كابن أجود.

٥ - شيوخه وحرصه على العلم:

تردد ابن الجوزي على علماء عصره ينهل من علمهم، حتى بلغ عددُ شيوخه تسعة وثمانين شيخًا كسّر كتابًا لذكرهم هو (مشيخة ابن الجوزي)^(١)، إلا أن أبرز شيوخه الذين تركوا أثرًا في شخصيته أربعة وهم:

أ - محمد بن ناصر السلامي: أبو الفضل (٤٦٧ - ٥٥٠هـ)، الإمام المحدث الحافظ، رُبِّي يَتِيمًا في كفالة جدّه لأمه أبي حكيم الخبري، الذي لقنه القرآن، وسمّعه الحديث، وقرأ ما لا يوصف كثرة، وحصل الأصول، وجمع وألف، وبعُدَ صيته، وكان فصيحًا، مليح القراءة، قويّ العربية، بارعًا في اللغة، جمّ الفضائل، ثقةً، ثبتًا، حسن الطريقة، متدينًا، فقيرًا متعففًا، نظيفًا نزهًا، وقف كتبه، ولم يعقب^(٢)

(١) طبع في الشركة التونسية عام ١٩٧٧م، بتحقيق الأستاذ محمد محفوظ.

(٢) لم يعقب: ليس له أولاد.

ب - علي بن عبيد بن نصر بن السري الزاغوني، أبو الحسن (٤٥٥) - ٥٢٧هـ)، العلامة الإمام شيخ الحنابلة، ذو الفنون، صاحب التصانيف، كان بحرًا من بحور العلم، يرجع إلى دين وتقوى، وزهد وعبادة، قال ابن الجوزي: صحبته زمانًا، وسمعت منه، وعلقتُ عنه الفقه والوعظ.

ج - عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي أبو البركات (٤٦٢ - ٥٣٨هـ)، الشيخ الإمام، الحافظ، المفيد، الثقة المسند، بقية السلف، قال السمعاني: هو حافظ ثقة متقن واسع الرواية، دائم البشر، سريع الدمعة، حسن المعاشرة، خرّج التخاريج، وجمع ما لا يوصف، ولعلّه ما بقي جزء إلا قرأه، وحصل نسخته، وقال أبو موسى المدني: هو حافظ عصره ببغداد، وقال ابن الجوزي: كنت أقرأ عليه وهو يبكي، فاستفدت بكتائه أكثر من استفادتي بروايته، وانتفعت به ما لم أنتفع بغيره.

د - موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي، أبو منصور (٤٦٥) - ٥٤٠هـ)، إمام في النحو واللغة من مفاخر بغداد، قرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي، ولازمه وبرع، وهو ثقة ورع، غزير الفضل، وافر العقل، مليح الخط، كثير الضبط، صنّف التصانيف، وشاع ذكره. وقال ابن الجوزي: قرأ الأدب سبع عشرة سنة على التبريزي، وانتهى إليه علم اللغة، ودرّس العربية بالنظامية، وكان الخليفة المقتفي يقرأ عليه شيئًا من الكتب، وكان متواضعًا، كثير الصمت، مثبّتًا، يقول كثيرًا: لا أدري.

وقال ابن النجار: هو إمام عصره في اللغة، كتب الكثير بخطه المليح المتقن مع متانة الدين، وصلاح الطريقة، وكان ثقة حجة نبيلًا.

وقال الكمال ابن الأنباري: وكان منتفعًا به لديانته، وحسن سيرته، وقال ابن شافع: كان من المحامين عن السنة.

ولم يكتف ابن الجوزي بما قرأ واستفاد على شيوخه الأمثال، بل عكف يقرأ كل ما تطاله يده من كتب قال في صيد الخاطر، الفصل (١٣٧): «وإني أُخبر عن حالي، وما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره فكأنني وقعتُ على كنز، ولقد نظرت في ثبوت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلد، وفي ثبوت كتب أبي حنيفة، وكتب الحُميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب، وابن ناصر، وأبي محمد بن الخشاب، وكانت أحمالًا، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلتُ: إنِّي طالعتُ عشرين ألفَ مجلدٍ؛ كان أكثر، وأنا بعدُ

في الطلب، فاستفدتُ بالنظرِ فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر همهم، وحفظهم، وعباداتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحترقُ همَمَ الطلابِ والله الحمد».

ومن جملة ما قرأ أجزاء كثيرة من (كتاب الفنون) لابن عقيل، وهو كتاب كبيرٌ جدًّا، فيه فوائد كثيرة جليلة، في الوعظ والتفسير والفقه والأصليين والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه التي وقعت له، وخواطره ونتائج فكره قيدها فيه، فاستفاد منه فوائد جمّة، ولعلّه هو الذي نبهه إلى تقييد خواطره، فكان منها كتابه (صيد الخاطر)، وفي الجملة ترك كتاب الفنون آثارًا بارزة في علم ومصنفات ابن الجوزي، قال رحمه الله عن كتاب الفنون: «وهذا الكتاب مئتا مجلد، وقع لي منه نحو مئة وخمسين مجلدًا» وقال سبطه في (مرآة الزمان): «واختصر منه جدي عشر مجلدات فرّقها في تصانيفه».

لقد كان حرصه على أوقات عمره شديدًا؛ فلا يضيع وقته من غير فائدة، حتى السويغات التي يضطر فيها لاستقبال زائريه، كان يشغلها بأمر تتعلق بعلومه؛ يقول في صيد الخاطر الفصل (١٦٤): «ثم أعددت أعمالًا لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من الاستعداد للقائهم قطع الكاغد^(١) وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإنّ هذه الأشياء لا بدّ منها، ولا تحتاج إلى فكرٍ، وحضور قلبٍ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي».

ثم حُبّب إليه في بداية الطلب طريق الزهاد، فاستمع إليه يصف حاله قائلاً: «كنتُ في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد بإدامة الصوم والصلاة، وحُبّبت إليّ الخلوة فكنت أجد قلبًا طيبًا، وكانت عين بصيرتي قويّة الحدة، تتأسّف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادرُ الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوعٌ أُسِّس وحلاوة مناجاة».

٦ - تصدّره للوعظ والإرشاد:

إلا أن الفن الذي أحبه ابن الجوزي هو الوعظ والإرشاد، فأعد له العدة من علوم الشريعة واللغة والأدب والتاريخ، فحفظ الكثير من الأحاديث والرقائق والأخبار والحكايات والأشعار، مع إحاطة تامة بأحوال عصره وشؤون مجتمعه،

(١) الكاغد: الورق.

وأحوال الناس خاصتهم وعامتهم، وعندما استوت له أدواته - وهو بعد في مقتبل العمر - أقبل يعقد مجالس الوعظ، وكان أولها في جامع المنصور سنة (٥٢٧هـ). وبدأت مجالسه تستقطب الناس، فازدحم عليه أهل بغداد، ينهلون من علمه ووعظه وتذكيره خاصتهم وعامتهم، حتى صار علماً من أعلام بغداد، ومفخرة تفاخر بها غيرها من المدن، فكان زوّار بغداد يحرصون على حضور مجالسه التي لم يكن لها نظير في العالم الإسلامي.

وها هو الرحالة الأندلسي الشهير «محمد بن أحمد بن جبير» يحضر أحد هذه المجالس ويصفها في بيان رائع في رحلته المشهورة فيقول: «ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحّد جمال الدين أبي الفضائل بن عليّ الجوزي بإزاء داره على الشطّ بالجانب الشرقي وفي آخره، على اتصال من قصور الخليفة، وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل سبت، فشهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفراء كل الصيد، آية الزمان، وقرّة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر، فأما نظمه ف(رضي) الطباع (مهيار) الانطباع، وأما نثره فيصعد بسحر البيان، ويعطلّ المثلّ ب(قُس) و(سَحَبان).

ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته: أنه يصعد المنبر، ويبتدئ القراء بالقراءة، وعددهم نيّف على العشرين قارئاً، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة، يتلونها على نسقٍ بتطريب وتشويق، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثلثية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة، وقد أتوا بآيات متشابهات، لا يكاد المتقدّ الخاطر يحصّلها عدة، أو يسميها نسقاً، فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجباً مبتدراً، وأفرغ في أصداق الأسماع من ألفاظه درراً، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقراً، وأتى بها على نسق القراءة لها لا مقدماً ولا مؤخراً، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها، فلو أن أبرع من في المجلس تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلاً، ويورد الخطبة الغراء بها عجباً ﴿أَفَسَحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُمِينُ﴾ [النمل: ١٦]، فحلّثت عن البحر ولا حرج وهيهات، ليس الخبر عنه كالخبر.

ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعياً له، ومنهم من يُعشى عليه، فيرفع في الأذرع إليه، فشهدنا هولاً يملأ الأنفس إنابة وندامة، ويذكر بأهوال يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازة القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالسه لكانت صفقة رابحة، والوجهة المفلجة الناجحة، والحمد لله على أن من بقاء من تشهد الجمادات بفضلها، ويضيق الوجود عن مثله، وفي أثناء مجلسه ذلك تبتدره المسائل، وتطير إليه الرقاع، فيجاوب أسرع من طرفة العين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا إله سواه^(١).

٧ - تصانيفه :

ثم رأى ابن الجوزي أنّ التصنيف في فن الوعظ يكمل مجالسه، بل يعمم نفعها، فالكتاب يبلغ ما لا يبلغه الخطاب، وهو باق وصاحبه موسد تحت التراب. يقول رحمته الله: «رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة، لأنني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يحرصون ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم، فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد...»^(٢).

لقد ابتدأ ابن الجوزي في التصنيف وله من العمر سبع عشرة سنة، فلا غرابة أن يكون من أكثر المصنفين في الإسلام، وقد تجاوز عدد مؤلفاته أربعمئة^(٣) كتاب، أفرد لها الأستاذ عبد الحميد العلوجي كتاباً سماه (مؤلفات ابن الجوزي) كما أن الإمام الذهبي سرد أسماء الكثير منها في سيره (٣٧٠/٢١) وأكتفي هنا بذكر أشهرها: (التبصرة) و(تلبيس إبليس) و(ذم الهوى) و(زاد المسير في علم التفسير) و(صفة

(١) رحلة ابن جبير، ص(٢٧١ - ٢٧٣)، تحقيق د. حسين نصار.

(٢) صيد الخاطر، الفصل (١٦٥).

(٣) طبع ببغداد سنة ١٩٦٥م، وذكر نسخها والمطبوع منها مرتبة على حروف المعجم.

الصفوة) و(المدهش) و(مناقب الإمام أحمد بن حنبل) و(المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) و(الموضوعات في الأحاديث المرفوعات) و(الوفا بأحوال المصطفى) كما ذكر هو رحمه الله تعالى عددًا منها في كتابه هذا.

٨ - صفاته وأخبار أسرته :

كان ابن الجوزي أنيقًا في مظهره نزهًا نظيفًا، متنعمًا في معيشته، كما كان رَحِمَهُ اللهُ متحدثًا بارعًا؛ إن أراد أن يضحك أضحك الثكلى بما يسرد من أخبار البخلاء والحمقى والمغفلين والمتماجنين والظراف. وإذا أراد أن يبكي أبكى الصخر الأصم بما يقص من وصف الآخرة وأهوال يوم القيامة وسير الصالحين الزاهدين، وخوفهم من الله تعالى. فكان يمزج بين هذا وذاك ليجذب القلوب، ويروّح عن النفوس لتستعد لسماع مواعظه، فهو خبير بما يصلح النفوس ويتألفها.

كما تميز ابن الجوزي رحمه الله تعالى إضافة إلى فصاحته وغزارة محفوظه بسرعة البديهة والجواب الحاضر، وقد ذكروا عنه قصصًا طريفة، منها: أن رجلًا سأله من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وكانت الأجواء بين الشيعة والسنة مشحونة، فقال على البديهة: أفضل الناس من كانت بنته تحته، فقال أهل السنة: يقصد أبا بكر؛ لأن ابنته عائشة كانت تحت رسول الله ﷺ، قالت الشيعة: بل يقصد عليًا لأن بنته فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كانت تحته.

تزوج رَحِمَهُ اللهُ مرتين فأنجب من زوجته الأولى عشرة أولاد، خمسة ذكور وخمس إناث، مات من الذكور أربعة؛ منهم ابنه عبد العزيز الذي مات مسمومًا بالموصل سنة (٥٥٤هـ)، وبقي علي أبو القاسم، وقد كتب له رسالة (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد) إلا أنه لم ينتفع بنصيحة والده، وكان عاقبًا سيئ الطباع. فاستغل محنة أبيه، فأخذ كتبه، وباعها بأبخس الأثمان، توفي عليُّ هذا سنة (٦٣٠هـ).

وأما الإناث فهنّ:

١ - رابعة: تزوجت من ابن رشيد الطبري سنة (٥٧١هـ)، فاشتغل هذا بكتب الفلاسفة، فساءت عقيدته، فهجره ابن الجوزي، فلما مات، زوّجها من مملوك تركي للوزير ابن هبيرة اسمه قزغلي فأنجبت يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي صاحب (مرآة الزمان) وغيرها من المصنفات.

٢ - زينب، و٣ - شرف النساء، و٤ - ست النساء الصغرى، و٥ - جوهرة.

وأنجب من زوجته الثانية ابنه يوسف، وهو أصغر أولاده وأنجبهم، ولد سنة (٥٨٠هـ)، وعظ بعد أبيه، وكتب وأتقن حتى ساد أقرانه، وتولى التدريس بالمدرسة المستنصرية، وبنى المدرسة الجوزية بدمشق، وأوقف عليها، ثم صار أستاذ دار الخليفة المستعصم سنة (٦٤٠هـ)، حتى قتل مع الخليفة هو وأولاده تاج الدين، وجمال الدين، وشرف الدين على يد التتار سنة (٦٥٦هـ).

٩ - محنته :

تعرّض ابن الجوزي في شيخوخته لمحنة قاسية كان سببها الرافضة، وقد لخصها الشيخ علي الطنطاوي في مقدمة طبعته لصيد الخاطر فقال رَضِيَ اللهُ :

كان الوزير ابن يونس الحنبلي قد عقد مجلساً للركن عبد السلام ابن عبد القادر الجيلي^(١)، وأُحرقت كتبه، وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثير، وذلك بمحضر من ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير مدرسة جدّه وسلّمها إلى ابن الجوزي، فلما ولي الوزارة ابنُ القصاب - وكان رافضياً خبيثاً - سعى في القبض على ابن يونس، وتتبع أصحابه؛ فقال له الركن: أين أنت من ابن الجوزي؟ فإنه ناصبي، ومن أولاد أبي بكر الصديق، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدّي، وأُحرقت كتبي بمشورته. فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر، وكان الناصر له ميلٌ إلى الشيعة، ولم يكن له ميلٌ آخر أيامه إلى الشيخ أبي الفرج، فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام، فجاء هذا إلى دار الشيخ، وشمته وأغلظ عليه، وختم على كتبه وداره، وشئت عياله.

فلما كان في أوّل الليل، حُمِلَ في سفينة، وليس معه إلا عدوّه الركن، وعلى الشيخ غلالة بلا سراويل، وعلى رأسه تخفيفة؛ فأُحْدِرَ إلى واسط، وكان ناظرها شيعياً؛ فقال له الركن: مكّني من عدوّي لأرميه في المطمورة^(٢)؛ فزبره^(٣)، فقال: يا زنديق! أرميه بقولك؟ هات خطّ الخليفة؛ والله لو كان من أهل مذهبي لبذلتُ روحي ومالي في خدمته.

قال ابن القادسي: لما حضر إلى واسط جُمِعَ الناس، وادّعى ابن عبد القادر

(١) عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني.

(٢) زبره: زجره ومنعه.

(٣) سرداب تحت الأرض.

على الشيخ أنه تصرّف في وقف المدرسة، و[أنه] اقتطع من مالها كذا وكذا، وكذب فيما ادّعاه، وأنكرَ الشيخَ وصدق وبرّ، وأُفردت للشيخ دارٌ بدرّب الديوان، وعلى بابها بواب، وأُفرد له من يخدمه، وكان بعض الناس يدخلون عليه، ويستمعون منه، ويملي عليهم؛ وكان يرسلُ أشعارًا كثيرةً إلى بغداد.

وأقام بواسطة خمس سنين يخدم نفسه بنفسه، ويغسل ثوبه، ويطبخ، ويستقي الماء من البئر، ولا يتمكّن من خروج إلى حمّام ولا غيره؛ وقد قارب الثمانين.

وبقي على ذلك من سنة تسعين إلى سنة خمس وتسعين، فأفرج عنه؛ وقدم إلى بغداد، وخرج خلق كثير يوم دخوله لتلقّيه، وفرح به أهل بغداد فرحًا زائدًا، ونودي له بالجلوس يوم السبت، فصلى الناس الجمعة، وعبروا يأخذون مكانات موضع المجلس عند تربة أمّ الخليفة، فوقع تلك الليلة مطر كثير ملأ الطرقات، فأحضر في الليل فرّاشون وروزجارية^(١)، فنظّفوا موضع الجلوس، وفرشوا فيه دقاق الحصى والبواري^(٢)، ومضى الناس وقت المطر إلى قَبْرِ معروف [الكرخي] تحت الساباط^(٣) حتى سكن المطر. ثم جلس الشيخ بكرة السبت، وعَبَرَ الخلق، وحضر أرباب المدارس والصوفية ومشايخ الربط، وامتألت البرية حتى ما كان يصل صوت الشيخ إلى آخرهم.

وأعاد الخليفةُ الشيخَ إلى بغداد وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة للوعظ، وأُشدد:

شَقِينَا بِالنَّوَى زَمَنًا فَلَمَّا تَلَّاقِينَا كَأَنَّا مَا شَقِينَا
سَخِطْنَا عِنْدَمَا جَنَّتِ^(٤) اللَّيَالِي فَمَا زَالَتْ بِنَا حَتَّى رَضِينَا
سَعِدْنَا بِالْوُصُولِ وَكَمْ شَقِينَا بِكَاسَاتِ الصُّدُودِ وَكَمْ فَنِينَا
فَمَنْ لَمْ يَحْيِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَوْمًا فَإِنَّا بَعْدَ مَا مِثْنَا حَيِينَا

ولم يزل الشيخُ على عادته الأولى في الوعظ ونشر العلم وكتابته إلى أن مات.

(١) قال النووي: الروزجار هو براء مضمومة، ثم واو ساكنة، ثم زاي، ثم جيم، ثم ألف، ثم راء: وهو الذي يعمل الطين بالمجرفة ونحوها.

(٢) جمع «بورية» وهي: الحصير.

(٣) الساباط: منر مسقوف.

(٤) جنت من الجناية.

١٠ - وفاته :

توفي ابن الجوزي بعد مرض دام خمسة أيام، ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء في الثالث عشر من رمضان المبارك سنة (٥٩٧هـ) في دار له قريبة من قبر معروف الكرخي بمحلة قطفتا، في الجانب الغربي من مدينة السلام بغداد.

أجمعت المصادر على أن يوم وفاته كان يوماً مشهوداً ببغداد، إذ ارتجت قلوب الناس لنبا وفاته، وغُلقت الأسواق، ونودي للصلاة عليه في جانبي بغداد، وحملت جنازته على رؤوس الناس، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور للصلاة عليه، فصلى عليه ابنه أبو القاسم علي، وضاق الجامع على سعته بالناس، فُصِّلِي عليه مرتان، ثم حُمِلَ إلى مقبرة باب حرب، فُدِّنَ هناك بالقرب من الإمام أحمد رحمهم الله.

قال سِبْطُه أبو المظفر: أوصى جدِّي أن يكتب على قبره:

يَا كَثِيرَ الْعَفْوِ عَمَّنْ كَثُرَ الذَّنْبُ لَدَيْهِ
جَاءَكَ الْمُذْنِبُ يَرْجُو الـ صَفَحَ عَنِ جُرْمِ يَدَيْهِ
أَنَا ضَيْفٌ وَجَزَاءُ الـ ضَافٍ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ^(١)



(١) انظر: ترجمته في مقدمة الأذكياء للأخ الكريم الأستاذ بسام الجابي حفظه الله، ص (٥ - ٢١).

صِيْدُ الْخَاطِرِ

فِي التَّخْلِيقِ مِنَ الْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ
وَالتَّحَلِّيِّ بِالْأَدَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ

تأليفُ

الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن عسلي بن بجوزي

٥١٠ - ٥٩٧ هـ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ.

قال الشيخ الإمام العالم أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رحمه الله عليه:

- ١ - الحمد لله حمدًا يبلغ رضاهُ، وصلَّى اللهُ على أشرف من اجْتَبَاهُ^(١)، وعلى مَنْ صَاحَبَهُ وَوَالَاهُ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا لَا يُدْرِكُ مُنْتَهَاهُ.
- ٢ - لَمَّا كَانَتِ الْخَوَاطِرُ^(٢) تَجُولُ فِي تَصَفُّحِ أَشْيَاءٍ تَعْرِضُ لَهَا، ثُمَّ تُعْرِضُ عَنْهَا فَتَذْهَبُ؛ كَانَ مِنْ أَوْلَى الْأُمُورِ حِفْظُ مَا يَخْطُرُ، لَكِي لَا يُنْسَى، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»^(٣). وَكَمْ قَدْ خَطَرَ لِي شَيْءٌ، فَأَتَشَاغَلُ عَنْ إِثْبَاتِهِ، فَيَذْهَبُ، فَأَتَأَسَفُ عَلَيْهِ! وَرَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي أَنِّي كُلَّمَا فَتَحْتُ بَصَرَ التَّفَكُّرِ؛ سَنَحَ^(٤) لَهُ مِنْ عَجَائِبِ الْغَيْبِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابٍ، فَاثْنَالُ^(٥) عَلَيْهِ مِنْ كَثِيبِ^(٦) التَّفْهِيمِ مَا لَا يَجُوزُ التَّفْرِيطُ فِيهِ، فَجَعَلْتُ هَذَا الْكِتَابَ قِيدًا لَصِيدِ الْخَاطِرِ. وَاللَّهُ وَلِيُّ النِّفْعِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مَجِيبٌ.

١ - فصل: المواعظ والسامع

٣ - قَدْ يَعْزِضُ عِنْدَ سَمَاعِ الْمَوَاعِظِ لِلسَّامِعِ يَقْظَةٌ؛ فَإِذَا انْفَصَلَ عَنِ مَجْلِسِ الذِّكْرِ؛ عَادَتِ الْقَسْوَةُ وَالْعَفْلَةُ، فَتَدَبَّرْتُ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ، فَعَرَفْتُهُ. ثُمَّ رَأَيْتُ النَّاسَ

(١) اجتنابه: اصطفاه واختاره.

(٢) رواه الدارمي (١٢٦/١) والحاكم (١٠٦/١) والطبراني في الكبير (٦٢/١) والخطيب في التقييد ص (٩٦) عن أنس موقوفًا وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) سنح: بدا.

(٥) اثنال: تابع.

(٦) كثيب: مجتمع الرمل.

يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفته من اليقظة عند سماع
الموعظة ويعدّها؛ لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسيّاط، والسيّاط لا تؤلّم بعد انقضائها، وإيلاؤها
وقت وقوعها.

والثاني: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة^(١)، قد تخلّى
بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه؛ فإذا عاد إلى الشواغل؛
اجتذبتّه بأفانيتها؛ فكيف يصح أن يكون كما كان؟!

وهذه حالة تعم الخلق، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر، فمنهم
من يعزم بلا تردّد، ويمضي من غير التفات؛ فلو توقّف بهم ركّب الطبع؛ لضعجوا؛
كما قال حنظلة عن نفسه: نافق حنظلة^(٢).

ومنهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحياناً، ويدعوهم ما تقدّم من المواعظ
إلى العمل أحياناً؛ فهم كالسنبلّة تميّلها الرياح^(٣).

وأقوام لا يؤثّر فيهم إلا بمقدار سماعه؛ كما دحرجته على صفوان^(٤).

(١) مزاح العلة: خلي عن الشواغل التي تصرفه عن التأثر بالمواعظ.

(٢) روى مسلم (٢٧٥٠) عن حنظلة الأسدي، وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال: لقيني أبو بكر
فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال:
قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عند
رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى
مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا
رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار
والجنة، حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا
كثيراً. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن لو تدمون عندي وفي الذكر لصافحتكم
الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم. ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» (ثلاث مرات).

(٣) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن مثل السنبلّة، تميل أحياناً، وتقوم
أحياناً» رواه أبو يعلى (٨٣/٢) وغيره.

(٤) الصفوان: الصخر الأملس.